الكُتّاب القرآني
وأثره في تنمية المهارات اللغوية للطفل

الباحث عبد العالي الدغوغي
باحث في سلك الدكتوراه، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء
المغرب

ملخص البحث:

يعد الكُتّاب القرآني أول فضاء تعليمي عرفه المجتمع الإسلامي بعد المسجد، وقد كان الهدف الأول من إحداثه؛ تعليم القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه لأبناء المسلمين. وقد انتشر الكُتّاب انتشارا واسعا في بلاد الإسلام، حتى بات عنصرا مهما في ثقافتنا الإسلامية، وشعيرة من شعائر ديننا الإسلامي الحنيف.

ويحظى الكتاب القرآني بمنزلة رفيعة عند المغاربة، لما يقدمة من عمل جليل للناشئة، ففيه يتعلم الصبيان كلام الله تعالى، وفيه يتشبعون بقيم الاستقامة والصلاح، ويتعلمون أصول العقيدة ومبادئ الشريعة، ولذلك كانت العوائل المغربية غنية أو فقيرة، تقدس هذا الفضاء التربوي والديني، وتهتم به اهتماما بالغا.

ويحقق الكُتّاب القرآني للطفل إيجابيات كثيرة في الجانب اللغوي؛ إذ يسهم في تنمية عدد من القدرات والمهارات اللغوية، ذلك أن التعامل مع القرآن الكريم حفظا وقراءة وكتابة، يسهم بشكل مباشر في تنمية المهارات اللغوية وتحسينها؛ كالاستماع الجيد، والتحدث بطلاقة، والبلاغة في النطق، بالإضافة إلى القراءة بشكل سليم وإتقان مخارج الحروف، ثم الكتابة الجيدة.

الكلمات المفتاحية: الكُتّاب القرآني، المهارات اللغوية، التلميذ، المدرسة، الطفل، التعلم.

ABSTRACT:

The Quranic school is the first educational space in the Islamic community after the mosque, and the first goal of its establishment was to teach the Holy Quran, the principles of the Islamic religion, and its teachings to the children of Muslims. It has spread widely in the countries of Islam, until it has become an important element in our Islamic culture, and a ritual of our true Islamic religion.

The Quranic school has a great status among Moroccans, because it provides children with a great service, as in it, boys learn the words of God Almighty, and in it they are imbued with the values of righteousness and goodness, and learn the fundamentals of faith and the principles of Sharia, and therefore Moroccan families, rich or poor, sanctify this educational and religious space, and respect it.

Therefore, there is no doubt that the Quranic school achieves many positives for the child in the linguistic aspect; as it contributes to the development of a number of linguistic abilities and skills, because dealing with the Holy Quran through memorization, reading and writing, contributes directly to the development and improvement of a number of linguistic skills; Such as good listening, fluent speaking, eloquence in pronunciation, in addition to reading correctly and mastering the articulation of letters, and then good writing**.**

KEYWORDS: Quranic school, language skills, student, child, learning.

المقدمة:

لقد دعا الإسلام منذ اللحظة التي بزغ فيها فجره إلى التعلم وطلب العلم، إذ أن أول آية نزلت على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، جاءت تحث على القراءة والتعلم. قال تعالى: (**اقْ.رَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**)[1]. كما جاءت أحاديث نبوية كثيرة تدعو إلى طلب العلم، وتؤكد على ضرورته وأهميته في حياة الإنسان، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَ.لْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**). [2]

ولذلك؛ فمنذ أن نزل القرآن الذي يعد من أسس العلم الأصيل، عكف عليه المسلمون تعبدا وتعلما، وانكبوا على ودراسته والتعمق في معانيه، باعتباره دستور الأمة، ومنهجها المعقود عليه مصيرها، واتجهوا إلى إقامة المؤسسات التي تُعنى بمهمة تعليمه وتحفيظه لأبناء المسلمين. فكان من أهم هذه المؤسسات؛ المساجد والكتاتيب القرآنية.

ولم يقتصر دور الكتاتيب القرآنية على تحفيظ القرآن فحسب، بل عملت على إحداث نهضة علمية وفكرية، وبرز الدور التربوي والتعليمي المهم الذي تؤديه هذه الكتاتيب، خاصة من ناحية تنمية المهارات اللغوية وتقويتها، من نطق صحيح وفصاحة في اللسان، وزيادة في الثروة اللغوية.

إشكالية البحث:

ولبناء هذا الموضوع؛ تم الانطلاق من الإشكالية التالية:

- ما مدى إسهام الكُتّاب القرآني في تنمية المهارات اللغوية للطفل؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة:

- ما المقصود بالكتاب القرآني؟
- كيف نشأ؟ وما هي مكانته في المجتمع الإسلامي والمغربي؟
- ما أهميته في حياة الطفل؟ وما أثره على تحصيله اللغوي؟
- وكيف تسهم في تنمية مهارات الطفل اللغوية؟

أسباب اختيار الموضوع:

إن من أهم الدوافع التي جعلت الباحث يقبل على البحث في هذا الموضوع، هو معرفته بأهمية هذه المؤسسة الدينية والتعليمية والتربوية في حياة الطفل، وذلك بحكم تجربته في هذه المؤسسة خلال طفولته التي قضاها بها، حيث تعلم داخل أسوارها الشيء الكثير قبل ولوج المدرسة الحكومية، وهو ما جعله يدرك قيمتها وأهميتها الكبرى في حياة التلميذ، خاصة قبل ولوجه المدرسة، إذ تندرج ضمنها أهم مقومات التربية والتعليم.

أهداف البحث:

إن البحث في هذا الموضوع يهدف إلى:

- التعرف على مفهوم الكتاب القرآني، وتاريخ نشأته.
- إدراك مكانته داخل المجتمع المغربي، وخاصة عند أهل البوادي.

- التعرف على أهميته ودوره في بناء الفرد داخل المجتمع.
- التعرف على طريقة التعلم في الكتاتيب القرآنية.
- التعرف على أثرها في تنمية المهارات اللغوية للتلميذ.

حدود البحث:

يهتم البحث نظريا؛ بدراسة أهمية الكتاتيب القرآنية بالنسبة للطفل، من خلال الوقوف عند مفهوم الكتاب القرآني وتاريخ نشأته وكذا مكانته في المجتمع المغربي، مرورا بتبيان منهجية التعلم في الكتاتيب القرآنية، واستحضار أثرها على التحصيل الدراسي لتلاميذ المرحلة الابتدائية.

أما من الناحية التطبيقية، فينحصر مجال البحث في دراسة أثر الكتاب القرآني في تنمية مهارات التلميذ، باستهداف عينة من تلميذات كُتّاب اولاد بن الشاوي (مركز الحاجة فاطمة ويغران) الذي ينتمي لجماعة الغنادرة بإقليم سيدي بنور، جهة الدار البيضاء سطات.

ويرجع سبب اختيار الباحث لهذه العينة، هو العدد الجيد من المستفيدات في الكتاب القرآني، مقارنة بالقرى المجاورة، التي تقل فيها أعداد المتعلمين، بحيث لا تسمح بإجراء الدراسة، لذلك وقع اختيار الباحث على كتاب اولاد بن الشاوي (مركز الحاجة فاطمة ويغران).

منهج البحث:

أما فيما يتعلق بمنهج البحث؛ فإن طبيعة الموضوع اقتضت من الباحث اتباع المنهج الوصفي والتحليلي، وذلك من خلال جمع المعلومات والمعطيات ووصفها وتحليلها بشكل موضوعي. مع الاعتماد في القسم التطبيقي على بطاقة استبيان مناسبة.

فرضية البحث:

تسهم الكتاتيب القرآنية في تنمية قدرات المتعلم ومهاراته اللغوية؛ بما في ذلك مهارة الاستماع، القراءة، الكتابة، والتحدث.

أدوات البحث:

لإجراء هذا البحث تم الاعتماد على الوسائل التالية:

- المصادر والمراجع؛ تم العمل بها في الجانب النظري.
- بطاقة الاستبيان؛ تم العمل بها في الشق العملي، لجمع البيانات.
- المقابلة الشفوية؛ استخدمت إلى جانب بطاقة الاستبيان، من أجل الحصول على معلومات إضافية حول الكتاب القرآني الذي أجريت حوله الدراسة.

الفئة التي أجريت حولها الدراسة الميدانية:

فئة الإناث؛ (من المستوى الأول إلى السادس من التعليم الابتدائي).

- الأعمار: من 6 إلى 12 سنة.

بطاقة الاستبيان التي تم العمل بها:

الهدف من هذه البطاقة هو القيام بعملية إحصائية من أجل الكشف عن عدد التلميذات المتمكنات من هذه المهارات، مقارنة بالعدد الإجمالي للتلميذات اللواتي يرتدن هذا المركز التعليمي. وقد وُجهت البطاقة إلى المعلمة المشرفة على المركز.

مكان إجراء الدراسة الميدانية:

مركز الحاجة فاطمة ويغران، بقرية أولاد بن الشاوي، الموجود بجماعة الغنادرة، إقليم سيدي بنور، جهة الدار البيضاء السطات، المغرب.

صورة للكتاب القرآني: "مركز الحاجة فاطمة ويغران"

خطة البحث:

وفيما يخص خطة البحث؛ فقد ارتأى الباحث أن يجعلها على النحو الآتي:

- **مقدمة:** وتتضمن تصورا شاملا حول موضوع البحث.
- **المبحث الأول: مدخل مفاهيمي**
- **المبحث الثاني: نشأة الكتاب القرآني، ومكانته في المجتمع المغربي**
- **المبحث الثاني: أهمية "الكُتّاب القرآني" وأثره على الطفل**
- **المبحث الرابع: دراسة ميدانية لبيان أثر الكتاب القرآني على المستوى اللغوي للطفل "تلميذات مركز الحاجة فاطمة ويغران باولاد بن الشاوي نموذجا"**
- **خاتمة:** وتتضمن أهم النتائج التي تم التوصل إليها من خلال البحث.

المبحث الأول: مدخل مفاهيمي

أولا: مفهوم الكُتّاب القرآني

الكُتّاب في اللغة مكان أو موضع مخصص للتعلم.

جاء في لسان العرب: الكُتاب: موضع تعليم الكتاب، والجمع الكتاتيب والمكاتب.[3] وهو مكان صغير لتعليم الصبيان القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن.[4]

أما في الاصطلاح؛ وبناء على المعنى اللغوي للفظ الكتاب؛ فيمكن القول بأن مصطلح الكتاب القرآني يشير إلى: مكان أو فضاء يكون بجوار المسجد غالبا، أو قد يكون في زاوية من زوايا المسجد، يشرف فيه شيخ الحي أو القرية، أو إمام المسجد على تعليم الأطفال أساسيات القراءة والكتابة العربية، ويعمل على تحفيظهم سور القرآن الكريم، وتعليمهم أصول الدين وتعاليمه.

ثانيا: المقصود بالمهارات اللغوية

المهارات جمع مهارة. وهي من مَهر؛ يقال: مهرت بهذا الأمر أمهر به مهارة أي صرت به حاذقا.[5] أما لفظ "اللغوية"، فمشتقة من اللغة، ومعناها: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.[6]

ومنه فإن المقصود بالمهارات اللغوية هو؛ القدرات اللازمة لاستخدام لغة ما، وهي: الفهم والتحدث والقراءة والكتابة.[7] أي أن يكون المرء بارعا في فهم اللغة منطوقة ومكتوبة، والتعبير بها ببراعة، شفهيا أو كتابيا.

المبحث الثاني: نشأة الكتاب القرآني، ومكانته في المجتمع المغربي

أولا: نشأة الكتاب القرآني في المجتمع الإسلامي

تعود نشأة الكتاتيب القرآنية إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمنذ أن نزل القرآن الكريم، انكب المسلمون على تعلمه ودراسته والتعمق في فهم معانيه، واتجهوا إلى إقامة المؤسسات التي تعنى بمهمة تعليمه وتحفيظه لأبناء المسلمين. فكان من أهم هذه المؤسسات؛ المساجد والكتاتيب القرآنية.

وقد أنشئت هذه الكتاتيب في عهد مبكر، إذ جاء في السنة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر المتعلمين من أسرى بدر أن يعلموا عشرة من المسلمين القراءة والكتابة لقاء حريتهم، ولأن المشرك محرم عليه دخول المسجد في الإسلام. فلا ريب إذن أن هذه المهمة كانت تجرى في مكان غير المسجد النبوي.

وقد ذكر إبن حزم مقالة أشار فيها إلى أن المسلمين قد عرفوا الكُتاب فى عهد عمر بن الخطاب، إذ يقول: "ثم مات أبو بكر ووليه عمر ففتحت بلاد فارس طولا وعرضا وفتحت الشام والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا".[8]

ولما سارت جيوش المسلمين في فتوحاتهم خارج الجزيرة العربية برزت فكرة "الكتاتيب القرآنية"بصورة واضحة، وتعددت في كافة الأقطار والأمصار التي حل فيها الفاتحون من المسلمين. ولقد أدى المسلمون الأولون من أهل الحجاز والشام والعراق ومصر دورا كبيرا في إنشاء هذه الكتاتيب في عهد الخلفاء الراشدين، ليعلموا أبناء هذه البلاد القرآن الكريم ويلقنوهم آيات من كتاب الله المبين، وهكذا وجدت الكتاتيب بكثرة في البصرة والكوفة والفسطاط والإسكندرية والقيروان وغيرها من أمهات العواصم العربية.[9]

ومع مرور الزمن اشتد اهتمام المسلمين بالتعليم، وازداد اهتمامهم بالكتاتيب القرآنية خلال العصر الأموي، حتى بلغت العناية ذروتها خلال العصر العباسي، الذي انتظم خلاله أمر هذه الكتاتيب بصورة فائقة نظرا لعناية الناس بأمر أولادهم من جهة ولاشتداد الدولة واهتمامها بالتعليم، بعد أن استقر لها الأمر ودانت لها كافة الأقطار. وهنا ظهرت الحركة العلمية الأدبية الدينية الفقهية وبلغت أقصى درجات التقدم والرقي في مجال العلوم الشرعية والإنسانية والعلوم التجريبية وسائر فروع المعرفة[10].

ثم انتشرت الكتاتيب العامة الموقوفة بعد ذلك عبر العصور حتى بلغت بلاد ما وراء النهر، إذ كان الكتاب يضم الأطفال من اليتامى والفقراء والمساكين، حتى أصبح كتاب الضحاك بن مزاحم عام ١٠٥هـ، . يحتوي على أكثر من ثلاثة آلاف طفل. كما أصبحت بالشام كتاتيب موقوفة لتعليم أبناء المسلمين حول الجامع الأموي بدمشق. ثم تلا بعد ذلك الكتاتيب في مصر وفي عهد المماليك ثم الدولة العثمانية وخصوصا الكتاتيب التي أقامتها في مكة المكرمة والمدينة المنورة.[11]

أما عن ظهور الكتاتيب بالمغرب؛ فبمجرد أن تم الفتح الإسلامي ببلاد الغرب الإسلامي، أخذ الولاة الفقهاء يعلمون النشء تعاليم الدين الإسلامي والقرآن الكريم، ومنذ ذلك الحين أصبحت الكتاتيب تتكاثر تكاثرا سريعا وقويا في المجتمعات الإسلامية.[12]

من هنا يمكننا القول بأن الكتاتيب القرآنية ظهرت مع ظهور الإسلام، وكان الهدف الأول من إحداثها؛ تعليم القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه لأبناء المسلمين. لتنتشر بعد ذلك انتشارا واسعا في بلاد الإسلام، وتتحول مع مرور الزمن إلى معهد تعليمي ضروري في المجتمع الإسلامي بعد المسجد، وعنصرا مهما في ثقافتنا الإسلامية، وشعيرة من شعائر ديننا الإسلامي الحنيف.

ثانيا: مكانة الكتاب القرآني في المجتمع المغربي

يحظى الكتاب القرآني بمنزلة رفيعة عند المغاربة، وذلك لما يقدمه من عمل جليل للناشئة، ففيه يتعلم الصبيان كلام الله الذي يعد طليعة العلوم وأسماها، وفيه يتشبعون بقيم الاستقامة والصلاح، ويتعلمون أصول العقيدة ومبادئ فقه العبادات، ولذلك كانت العوائل المغربية غنية أو فقيرة، تقدس هذا الفضاء التربوي والديني، وتهتم به اهتماما بالغا.

ولعل أهم نؤكد به هذا الاهتمام الكبير من المغاربة بالكتاتيب القرآنية، هو انتشارها الواسع في كل المناطق، في الحواضر والبوادي، وقد ظلت هذه الكتاتيب القرآنية بمثابة الحصانة الروحية والدعامة الأساسية للحفاظ على الهوية المغربية وثوابتها الدينية، حيث لازال هذا الموروث القرآني يؤدي دوره الريادي في تحفيظ وتلقين كتاب الله العزيز للناشئة وفق المنهج العملي الذي تميز به المغاربة منذ القدم في تحفيظ القرآن الكريم وروايته وضبطه ورسمه[13].

ولم تكن الكتاتيب في المغرب تُعنى بشئ سوى تحفيظ القرآن وما يتصل به من تعلم رسم الآيات والخط. يقول ابن خلدون: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الوِلدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذُهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواهُ في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يحذَق فيه أو ينق .طع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأنصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم، إلى أن يجاوزوا حدَّ البلوغ إلى الشبيبة، وكذا مذهبهم في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره، فهم لذلك أقومُ على رسم القرآن وحفظِه من سواهم".[14]

وقد كانت ثمة استثناءات في هذه المسألة، إذ كانت توجد كتاتيب يحرص فيها المعلمون على تعليم مبادئ الدين وقيمه. كما سيأتي بيانه من خلال تجربة الباحث.

ويظهر اعتناء الدولة المغربية بالكتاتيب القرآنية، في فتحها –عن طريق وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية– آفاقاً جديدة ورحبة لتفتيق مواهب الناشئة في ميادين الحفظ لكتاب الله، وتجويده والمنافسة فيه، فأحدثت لذلك البرامج الإذاعية، والمسابقات الموسمية، ورصدت الجوائز القيمة والمكافآت المهمة لحفز همم الناشئة ولطلب المزيد من الحذق والتبريز في هذا الشأن. وهكذا أصبح قراؤنا، في أواخر القرن الماضي، يشاركون وينافسون في مسابقات ومباريات التجويد والحفظ، ويحصلون على الجوائز والمراتب المشرفة في عدد كبير من دول المشرق العربي والعالم الإسلامي.[15]

المبحث الثاني: أهمية الكُتّاب القرآني، وأثره على الطفل

أولا: أهمية الكُتّاب القرآني بالنسبة للطفل

إن ارتياد الطفل للكتاب القرآني، وانتظامه فيه، من أهم الأسباب التي تفتح مداركه العقلية، وتسهم في نموه المعرفي المبكر، وتكسبه المهارات اللغوية اللازمة، وتجعله متفوقا على أقرانه في المدرسة، كما أنها تغرس في نفسه قيم الإسلام ومبادئه وآدابه، وهذا مما تشهد به الأسر التي تدفع بأبنائها إلى الكتاتيب، ويؤكده المعلمون بالمدارس.

يقول ابن خلدون في معرض حديثة عن فضل تعليم الصبيان القرآن: "اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات. وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات.[16]

فالكتاب القرآني حصن للصبيان من كل الآفات والمنكرات، وفضاء تربوي وروحاني، يبعد الطفل عن مجالس السوء والزيغ والانحراف، ويجنبه ما يفسد عليه أخلاقه وبدنه، من الخصال القبيحة، والعادات السيئة، إذ يوفر له الأقران الصالحين، والقدوة الحسنة التي هي من أعظم أساليب التربية في الإسلام، مما يعوده على العادات المحمودة، والآداب الحسنة والأخلاق النبيلة؛ كالصدق والأمانة والصبر. بالإضافة إلى إسهام الكتاب في تعلم الطفل أصول عقيدته، وأحكام دينه، بدءا من الشهادتين، وانتهاء بكيفية الوضوء وأداء الصلاة.

وإلى جانب كل هذه الأمور الحسنة؛ فإن الكُتّاب القرآني يحقق للطفل إيجابيات كثيرة في الجانب اللغوي؛ من خلال إسهامه في تنمية عدد من القدرات والمهارات اللغوية، ذلك أن التعامل مع القرآن الكريم حفظا وقراءة وكتابة، يسهم بشكل مباشر في تنمية عدد من المهارات اللغوية وتحسينها؛ كالاستماع الجيد، والتحدث بطلاقة، والبلاغة في النطق، بالإضافة إلى القراءة بشكل سليم وإتقان مخارج الحروف، ثم الكتابة الجيدة.

فالكتاتيب القرآنية إذن؛ فضاء تربوي وتعليمي متكامل؛ فيه من الفضائل والمحاسن، مما لا يمكن أن يجده الطفل مجتمعة في أي فضاء آخر. فهو منظومة ضرورية في حياة المجتمع المعاصر، وبالتالي لا يمكن القول بأن: نظام رياض الأطفال، أو السنوات الأولى من التعليم الأساسي يمكن أن تحل محل الكتاتيب، لأن هذه الأنظمة الحديثة لا تتمع –في الغالب– بنظام الكتاتيب في التعليم المباشر وفي إتقان الجوانب الدينية.[17]

ثانيا: الطريقة العملية في التعليم بالكُتّاب القرآني بالمغرب

لا شك أننا إذا صادفنا أي مغربي مر بتجربة التعلم بالكتاتيب القرآنية، سواء في الحاضرة أو البادية، سنجد أنه مازال يتذكر الطريقة التي كان يتعلم بها في الكتاب خلال طفولته. وهي الطريقة التي تعلم بها الباحث وأقرانه قبل ولوج المدرسة، حينها كان الكُتّاب في القرية، ولم يكن ثمة شيء يعرف عند الناس بالمدرسة الحرة، أو رياض الأطفال، وكان ذلك في نهاية تسعينات القرن الماضي.

وقد كان يطلق على الكُتّاب القرآني، اسم "الجّامع" أو "المسيد"، وعلى المعلم "الفْقيه"، وكان يعيش الفقيه في بيت متواضع بمحاذاة المسجد، يقوم بمهمة مؤذن، وإمام، وخطيب، كما أنه كان يعلم الصبيان القرآن الكريم، وأصول العقيدة والعبادات كالطهارة والصلاة، ويربيهم على الخلق الحسن، والسلوك القويم.

وقد كان الكُتاب حينها هو المسجد نفسه الذي تقام فيه صلاة الجماعة، وكان بناؤه بسيطا، وكان التلاميذ يجلسون على الحصير، ويعتمدون في تعليمهم على وسائل بدائية؛ كاللوح والأقلام الخشبية للكتابة، وعلى الصلصال. ومع مرور الوقت، تم بناء مسجد كبير بجانب القديم، وتحول القديم لكتاب قراني مخصص لتعليم الصبيان.

ومن خلال التجربة الشخصية المتواضعة للباحث، يمكن إيجاز طريقة التعليم بالكُتّاب القرآني، على النحو الآتي:

عند ولوج الطفل لأول مرة للكتاب القرآني، يلتحق بأقرانه ضمن حلقة يتوسطها الفقيه، والذي يقدم له لوحاً قد دَون عليه حروف الهجاء العربية، بالترتيب المتعارف عليه في الكتاتيب القرآنية بالمغرب، والتي تكون وفق الترتيب الآتي: أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، ط، ظ، ك، ل، م، ن، ص، ض، ع، غ، ف، ق، س، ش، ه ـ، و، لا، ي، ء.

وهذه الحروف تكون مدونة في جهة من اللوح، أما الجهة الأخرى فتكتب فيها سورة الفاتحة، التي يتم تلقينها للطفل من حين لآخر، من قبل الفقيه تارة، أو من قبل بعض تلاميذه، بالتلقين والسماع ودون تهجٍّ لها، حتى إذا أتقن حفظها، طلب منه مسح الوجه الذي كتبت عليه، ليكتب الفقيه مكانها سورة أخرى من قصار السور، ويشرع في حفظها إلى جانب تعلمه للحروف.[18]

ويقضي الطفل ما شاء الله أن يقضي من الأيام والأسابيع، في حفظ الحروف وتعلمها، حسب قدراته وإمكاناته، وفي مرحلة التعلم هذه، يتعرف على أشكالها، ويربطها ببعض الأشياء المحسوسة التي يراها في حياته اليومية، بمساعدة الفقيه، كما يتعرف على ما يتميز به كل حرف على الآخر، فيردد وراء الفقيه باللهجة العامية هكذا: (اللّيف ما ينقُط، البا وحدة من تحت، التّا جوج من فوق، أثا ثلاثة من فوق ..) ومعنى ذلك: الألف من دون نقطة، الباب أسفله نقطة واحدة، التاء أعلاه نقطتان، الثاء أعلاه ثلاثة نقط .. وهكذا.

وإذا رأى الفقيه أن التلميذ قد حفظ الحروف وأتقنها وأصبح يميز بينها، ولا يستشكل عليه أي شيء منها، ينتقل به إلى مستوى آخر؛ وهو تعلم الحروف مع الحركات، ويبدأ بكل حركة على حدة، بالفتحة أولا، ثم الضمة، وبعدها الكسرة؛ هكذا: (النّصبة: بَ ..) حتى يتقن جميع الحروف مع الفتحة، ثم يأتي دور الضمة؛ (الرّفعة: بُ ..) وهكذا.

ثم ينتقل للمدود والتنوين بالطريقة نفسها، حتى إذا ضبطها فهما وحفظا، انتقل به الفقيه لمرحلة جمع الحروف وتهجي الكلمات.

وهكذا بعد أن يتقن التلميذ الحروف وتهجئتها، ويتمكن منها حفظا وفهما وقراءةً، يكتب له الفقيه سورة على اللوح أو بعضا منها، حتى إذا تمكن من حفظها، مسحها وكتب مكانها سورة أخرى، وتظل الآيات التي حفظها بالأمس في جهة من اللوح، والآيات التي يكتبها في يومه ذاك في جهة أخرى، وحين يمسح التلميذ اللوح ويعرضه على الشمس، يطلب الفقيه من التلميذ مراجعة السورة الماضية، في انتظار أن يجف اللوح ليكتب عليه سورة جديدة.

وإلى جانب حفظ التلميذ للقرآن، يحرص الفقيه على تعليمه مراتب الدين، وأركان الإسلام والإيمان، وطريقة الوضوء وكيفية أداء الصلاة، كما يعمل على تربيته على لزوم مكارم الأخلاق ومحاسنها؛ كالصدق والأمانة والإيثار والحلم، والبعد من مساوئها؛ كالكذب والغش والظلم وغيرها.

فهذه هي الطريقة المتعارف عليها في المغرب، وهي التي تعلم بها خلق كثير، فكانوا إذا بلغوا سن السابعة، وولجوا المدرسة العمومية، لم يجدوا أي صعوبة تذكر فيما يتعلق بالمهارات اللغوية، وقد كان من التلاميذ من يأتي المدرسة ومعه زاد من السور، بل منهم من يكون

حافظا لعدد من الأحزاب. كما يظل التلاميذ ملتزمين بالتعلم في الكتاب القرآني، بالموازاة مع تعليمهم في المدرسة، فيذهبون كلما سنحت لهم الفرصة لذلك.

ولا شك أن للوالدين دورا مهما في هذا الباب، إذ أن الأهداف التعليمية والتربوية لا يمكن أن تتحقق دون حرص من الوالدين على أبنائهم، ودون متابعتهم لهم بشكل مستمر.

ثالثا: أثر الكتاب القرآني في تنمية المهارات اللغوية للطفل

لا شك أن الكُتّاب القرآني يحقق للطفل إيجابيات كثيرة؛ من خلال إسهامه في تنمية عدد من القدرات والمهارات، وخاصة تلك التي تتعلق بالجانب اللغوي، ذلك أن التعامل مع القرآن الكريم حفظا وقراءة وكتابة، يسهم بشكل مباشر في تنمية المهارات اللغوية وتحسينها.

وتعد مهارة الاستماع من أهم هذه المهارت، إذ تعتبر المدخل الأساسي لاكتساب اللغة وإتقانها، وهي أم المهارت، فمن خلالها تتحقق سائر المهارات اللغوية الأخرى؛ من تحدث وقراءة وكتابة.

وبما أن الطفل في الكتاب القرآني يكون مطالبا بحفظ القرآن الكريم، فإن عملية الحفظ هذه تجعله يتقن مهارة الاستماع، لأنه يدرك أن حاسة السمع هي التي تجلعه يحفظ الآيات والسور بسرعة، كما أن الثقافة التي يتشبع بها داخل أسوار الكتاب؛ من تقديس لكلام الله واحترامه عند سماعه، تسهم في جعله مستمعا جيدا، وتنمي مهارة الاستماع لديه.

وباتقانه لهذه المهارة، وتلقفه لمفردات القرآن العذبة النقية، وآياته التي جاءت في أعلى درجة من الفصاحة ودقة التعبير، وأرفع رتبة في البلاغة، وحسن البيان. يصبح المتعلم ذا فصاحة قوية في اللسان، ونطق جيد، وتعبير سليم، وفهم صحيح.

ومن المهارات أيضا مهارة التحدث؛ إذ أن ولوج الطفل للكتاب القرآني، وإقباله على القرآن الكريم، ولزومه لألفاظه العذبة النقية، ولآياته العظيمة، وتأثره بأساليبه البليغة، ستجعله يتكسب طلاقة في التعبير عن أفكاره، بجمل متناسقة ذات أسلوب جيد، مع صحة النطق وسلامة الأداء.

وتجدر الإشارة إلى أن التلاميذ الذين يدرسون في الكتاتيب القرآنية يحفظون القرآن الكريم وفق أحكام التلاوة، ويعطون لكل حرف حقه في النطق، وبذلك يحسنون مخارج الحروف.

ثم هناك مهارة القراءة؛ التي تعد من أهم المهارات التي يكتسبها تلميذ الكتاب القرآني، إذ أن عملية التدرج في التعلم التي يسير عليها نظام الكتاتيب القرآنية، بالإضافة إلى القراءة المستمرة للقرآن الكريم، تجعل التلميذ يتقن مهارة القراءة، ومن ثم يحقق الهدف الأساسي من تعلم اللغة العربية بشكل متقن.

وهناك مهارات الكتابة؛ والتي تتمثل في القدرة على كتابة الحروف الهجائية والكلمات العربية، مع تمييز أشكال الحروف، والكتابة بخط واضح ومقروء، وأيضا مراعاة القواعد الإملائية والنحوية واللغوية، مع ترتيب الأفكار ومراعاة تسلسلها المنطقي، وعرضها بوضوح.

ولا شك أن كثيرا من التلاميذ الذين يخضعون للتعليم في الكتاتيب القرآنية، يتقنون إلى حد كبير مهارة الكتابة، وقواعدها، فنجدهم يكتبون بخط واضح وجيد، ويراعون علامات الوقف والترقيم، كما أنهم يعبرون بأسلوب جيد وسليم، وذلك نتيجة لتعودهم على كتابة آيات القرآن الكريم وتكرار سماعهم لمصطلحاته الفريدة بشكل يوم، مما يقوي ثروتهم اللغوية ويغنيها.

ومن هنا يمكن القول، بأن مراكز تعليم القرآن الكريم، تعمل على:

- تدريب التلاميذ على النطق الصحيح، الذي يؤدي إلى الأداء الجيد والفهم الدقيق.
- قدرة التلاميذ على التمييز بين الحروف.
- التحقيق؛ وهو القدرة على القراءة بتمهل، فيعطى للحرف حقه، بنطقه من مخرجه الصحيح، وتظهر صفاته واضحة وجلية، فيتدبر السامع المعنى المراد من الكلمة
- حسن الإصغار وزيادة الثروة اللغوية.
- رياضة اللسان من خلال كثرة التكرار.[19]

فالقران الكريم إذن، هو أقدر الوسائل على تطويع اللغة للنطق، واستقامة التراكيب وسلامة المخارج في أصواتها والنطق بها.[20] كما أن للكتاتيب في هذا الباب دورا في غاية الأهمية، لا سيما وأن الكُتّاب هو أول فضاء ينفتح عليه الصبي المسلم، وفيه تنقش على صفحات صدره البيضاء النقية آيات الذكر الحكيم، التي تكون سببا في نجاحه وفوزه في الدنيا والآخرة.

المبحث الرابع: دراسة ميدانية لبيان أثر الكتاب القرآني على المستوى اللغوي للطفل

"تلميذات مركز الحاجة فاطمة ويغران باولاد بن الشاوي نموذجا"

يهدف هذا المبحث إلى عرض وتحليل بيانات الدراسة الميدانية واختبار الفرضية والتحقق منها.

الجدول الأول: عرض مجموع التلميذات اللواتي يخضعن للتعلم بالكتاب القرآني، حسب كل مستوى، واللائي شملتهن الدراسة.

المستوى	عدد التلميذات اللواتي يستفدن من التعليم بالكتاب القرآني
الأول	17
الثاني	15
الثالث	12
الرابع	16
الخامس	18
السادس	14

يوضح الجدول أعلاه، عدد الإناث اللواتي شملتهن الدراسة الميدانية، واللواتي بلغ عددهن 92 تلميذة، غير أن هذا ليس العدد الحقيقي لمجموع المستفيدات، إذ حسب قول الأستاذة المشرفة على الكتاب القرآني، فإن العدد يفوق هذا بكثير، وخاصة خلال يوم الأحد، الذي يحظى بحضور عدد كبير من التلميذات، لكونه يوم عطلة عندهن.

الجدول الثاني: نرصد من خلاله مدى تمكن التلميذات اللواتي يرتدن الكتاب القرآني، من المهارات اللغوية، والتي تشمل: التحدث، الاستماع، القراءة، الخط، الحفظ السريع والاستيعاب الجيد، النطق الجيد والطلاقة في الحديث، بالإضافة إلى الترتيل الجيد للقرآن الكريم.

المهارات	المستوى الأول	المستوى الثاني	المستوى الثالث	المستوى الرابع	المستوى الخامس	المستوى السادس

النطق الصحيح مع الحديث بطلاقة وبأسلوب جيد	15	13	12	15	18	14
القراءة بشكل سليم مع الفهم الجيد للمقروء	16	15	12	15	18	14
وضوح الخط	12	11	12	16	18	14
كتابة إملائية صحيحة	10	10	12	16	18	14
الحفظ السريع والاستيعاب الجيد	17	15	12	16	18	14
الاستماع الجيد	17	15	12	16	18	14
الترتيل الجيد للقرآن	13	12	12	15	17	13

تُظهر الدراسة التي تمت بمساعدة الأستاذة المشرفة على الكتاب القرآني، أن نسبة كبيرة جدا من التلميذات تفوق 90%، تتمكن بشكل جيد من جميع المهارات اللغوية، ويظهر ذلك بشكل جلي من خلال رضا الأستاذة المشرفة على مستوى التلميذات، خاصة فيما يتعلق بالحفظ السريع، والقراءة السليمة للسور والآيات القرآنية، والكتابة المتقنة للآيات والسور.

نرى كذلك من خلال هذا الجدول أن ثمة انخفاضا طفيفا في عدد التلميذات اللواتي يجدن الكتابة بخط جيد، والكتابة الإملائية الصحيحة، بالنسبة للمستويين الأول والثاني، وهذا بديهي، لأن التلميذات في المستويات الدنيا يتدرجن في اكتساب المهارات اللغوية، فالهدف الرئيسي في بداية التعلم بالكتاب القرآني هو اكتساب مهارة الاستماع والقراءة والحفظ الجيد للقرآن الكريم، أما باقي المهارات الأخرى فهي من نواتجه المصاحبة لهذا الفعل، والتي تأتي تباعا مع مرور الوقت.

إن هذه الدراسة الميدانية التي عملنا من خلالها على الوقوف عند عينة من تلميذات الكتاب القرآني باولاد بن الشاوي ودراسة مدى استفادتهن من التعلم بالكتاب؛ تبين لنا أن الكتاب القرآني يسهم بشكل كبير في تمكين الطفل المتعلم من النطق السليم للأحرف، وذلك بنسبة كبيرة جدا، كما أن اعتماد خاصية التسميع أثناء الكتابة أو الحفظ يسهم في إكساب الطفل النطق والقراءة السليمة للحروف والكلمات، وهو ما تم الوقوف عنده ميدانيا بالكتاب القرآني.

كما أن المقابلات التي أجريت مع الأستاذة المشرفة، وبعض المساعدين الذي يعاينون عملية التعلم عن كثب، كشفت أن تلميذات الكتاب القرآني يتفوقن في دراستهن بالمدرسة الحكومية ولا يجدن أي صعوبة في التعامل مع مختلف المواد الدراسية، كما أنهن يحصلن على درجات عالية في جميع المواد، مما يعني أن الكتاتيب والمدارس القرآنية تعمل جنبا إلى جنب من أجل تطوير المستوى الدراسي للمتعلمين، وهي بذلك تؤدي دورا بناء ومهما في ميدان تربية وتعليم الناشئة.

وكنتيجة لتحليل بيانات هذه الدراسة الميدانية؛ يمكن القول بأن التعليم القرآني يسهم بشكل فعال في تذليل صعوبات التعلم المتمثلة في القراءة والكتابة والحفظ، ذلك أن الكتاب القرآني يتم فيه الحفظ بشكل يومي، وهو ما يشكل أثرا إيجابيا على ذاكرة المتعلم من خلال تنمية ملكة الحفظ وتقويتها. كما يتدرب المتعلم في الكتاب على الطلاقة في الحديث، والكتابة بشكل واضح وبخط جيد، وذلك راجع لعملية التكرار والتدريب الذي يمارسه المتعلم بشكل مستمر في الكتاب القرآني.

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث، تجدر بنا الإشارة إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها، والتي يمكن أن نجملها على النحو الآتي:

- يطلق الكتاب القرآني على ذلك المكانِ الواسعِ الذي يكون بجوار المسجد أو في زاوية منه، يشرف فيه إمامُ المسجد أو شيخ القرية أو الحي، والذي يطلق عليه في المغرب اسم "الفقيه"؛ على تعليم الأطفال أساسيّات القراءة والكتابة العربيّة والقرآن الكريم.

- يقصد بالمهارات اللغوية؛ القدرات اللازمة لاستخدام لغة ما، وهي: الفهم والتحدث والقراءة والكتابة.

- تعد الكتاتيب القرآنية أول المعاهد التعليمية بعد المسجد، وقد تطورت بعد بزوغ فجر الإسلام وانتشرت انتشارا واسعا، ولقيت اقبالا كبيرا بعد مجيئ الإسلام، إذ أصبحت ركنا مهما في ثقافتنا الإسلامية وشعيرة من شعائر دين الإسلام الحنيف.

- يعد المغرب من أكثر الدول الإسلامية، حفاظاً على هذا الموروث الروحي، لما يقدمه من عمل جليل للناشئة، ففيه يتعلم الصبيان كلام الله الذي يعد طليعة العلوم وأسماها، وفيه يتشبعون بقيم الاستقامة والصلاح، ويتعلمون أصول العقيدة ومبادئ فقه العبادات.

- يطلق على الكُتّاب القرآني في المجتمع المغربي، اسم "الجّامع" أو "المسيد"، وعلى المعلم "الفْقيه"، الذي يعلم الصبيان القرآن الكريم، وأصول العقيدة والعبادات كالطهارة والصلاة، ويربيهم على الخلق الحسن، والسلوك القويم.

- يحقق الكتاب القرآني للطفل إيجابيات كثيرة في الجانب اللغوي؛ لكونه يسهم في تنمية عدد من القدرات والمهارات اللغوية؛ كالاستماع الجيد، والتحدث بطلاقة، والبلاغة في النطق، بالإضافة إلى القراءة بشكل سليم وإتقان مخارج الحروف، ثم الكتابة الجيدة.

الهوامش:

1 سورة العلق، الآية: 1.

2 رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 71/8، رقم الحديث: 2699.

3 ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414 هـ، ط3، 699/1.

4 نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، 1972، ط2، 775/2.

5 ابن منظور، لسان العرب، 185/5.

6 المصدر نفسه، 251/15-252.

7 أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، الناشر عالم الكتب، 2008م، ط1، 2133/3.

8 ابن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت456)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، 67/2.

9 الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، الناشر: موقع الجامعة على الإنترنت، 431/12.

10 الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، 430،431،432/12. (بتصرف).

11 طارق بن عبد الله حجار، تاريخ المدارس الوقفية في المدينة المنورة، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد120، 1423هـ/2003م، ص: 477.

12 أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، دار الكشاف للطباعة والنشر، ص20،406،408. (بتصرف).

13 الموقع الإلكتروني لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (المغرب)، الرابط: https://2u.pw/a1M53OfO.

14 عبد الرحمن بن خلدون، العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، 1982م، ط1، 1/ 740.

15 الموقع الإلكتروني لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (المغرب)، الرابط: https://2u.pw/ECTY0dVY

16 عبد الرحمن بن خلدون، العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 1/ 740.

17 محمد يحيى، كيف نهتم بالقرآن، كلية القرآن، طنطا، مجلة الدعوة، عدد1419.

18 يتم مسح اللوح بالماء الطاهر والصلصال، والذي هو مادة تستخرج من جوف الأرض، تشبه المادة الأولية التي تصنع منها الأواني الطينية، يتم دهن اللوح بها بعد غسله بالماء، ثم يعرض على الشمس ليجف، ويكتب عليه بالقلم الذي يصنع من القصب، والحبر الذي يطلق عليه اسم "السّمَق" والذي يصنع من صوف النعجة الذي يوجد أسل بطنها، ويكون ملطخا بالعرق والدسم، تؤخذ هذه المادة وتوضع في إناء وتُطهى حتى تتحول إلى مادة سوداء، يتم وضعها في "الدّواة" أو 'الدّواية" باللهجة المغربية، وتستعمل للكتابة.

19 فخري محمد صالح، اللغة العربية أداء ونطقا واملاء وكتابة، الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، 1986، ص 40.

20 سمير عبد الوهاب وآخرون، تعليم القراءة والكتابة في المرحلة الابتدائية، الدقهلية للطباعة والنشر، المنصورة، ط2، 2004، ص48.